البيِّنة

في اقتباس العلم والحَذْق فيه

تصنيف

صالح بن عبد الله بن حمد العصيمي

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى، فَلَهُ الْـحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَالْأُولَى.

وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ صَلَاةً وَسَلَامًا بِالْـمِكْيَالِ الْأَوْفَى.

أَمَّا بَعْدُ..

فَإِنَّهُ لَـمْ يَكُنِ الَّذِينَ يَقْتَبِسُونَ الْعِلْمَ مُنْفَكِّينَ عَنْ خَبْطِهِمْ، زَائِلِينَ عَنْ خَلْطِهِمْ؛ حَتَّى تَأْتِيَهُمْ بَيِّنَةٌ وَاضِحَةٌ، وَحُجَّةٌ مُوضِحَةٌ، تُوَجِّهُ حَائِرَهُمْ، وَتُنَبِّهُ غَافِلَهُمْ.

وَقُضِيَ لِي فِيمَا سَلَفَ تَصْدِيرُ مُقَيَّدَةٍ فِي (مَدَارِجِ الْعِلْمِ) بِعَشْرِ وَصَايَا[1]، شَرَّقَتْ وَغَرَّبَتْ مَا شَاءَ اللهُ، فَتَلَقَّفَهَا فِئَامٌ يَسْتَرْشِدُونَ، وَاسْتَفَادَ مِنْهَا أَخْيَارٌ مُرْشِدُونَ، وَامْتَدَّتْ إِلَيْهَا يَدٌ جَائِرَةٌ أَفْرَغَتْهَا فِي وِعَاءِ مَوْقِعٍ مِنْ مَوَاقِعِ الشَّبَكَةِ الْعَنْكَبُوتِيَّةِ مَنْحُولَةً لِدَعِيٍّ لَـمْ يَخْتَرِعْ مَعْنًى وَلَـمْ يَفْتَرِعْ مَبْنًى، فَأَهْوَتْ إِلَيْهِ يَدُ الْعَدْلِ تَهْتِكُ سِتْرَهُ، وَتَفْضَحُ سِرَّهُ، وَكَرِهْتُ لَجَّتَهُمْ، فَارْتَفَعْتُ عَنْ لُجَّتِهِمْ؛ لِأَنَّ الْـمَقْصُودَ إِصَابَةُ الْأَجْرِ، لَا سِرْبَالُ الْفَخْرِ، وَانْتِحَالُ الْـمَقَالِ لَا يَسُوءُ صَادِقًا طِلْبَتُهُ بَثُّ الْعِلْمِ وَهِدَايَةُ الْخَلْقِ، فَاللهُ يَغْفِرُ لِي وَلَهُ.

ثُمَّ حَسَّنَ لِي مُوَفَّقٌ سَلَّ نِصَالِهَا، وَبَوْحِ وِصَالِهَا، تَوْسِعَةً فِي الْإِفَادَةِ، فَأَجَبْتُ الدَّاعِيَ، وَحَقَّقْتُ مُؤَمَّلَهُ، فَأَبْرَزْتُ «الْبَيِّنَةُ فِي اقْتِبَاسِ الْعِلْمِ وَالْـحِذْقِ فِيهِ» مِنْ خِدْرِهَا، تَنْفَعُ الْـمُلْتَمِسَ، وَتَرْفَعُ الْـمُقْتَبِسَ، وَتَدْفَعُ الْـمُخْتَلِسَ، ﴿وَاللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾

---

(١) وبينها وبين كتابي ((تعظيم العلم)) اجتماعٌ وافتراقٌ، وتصديقٌ وإحقاقٌ؛ لاتِّحاد المَصدَر واتِّفاق المقصد.

البَيِّنَةُ الأُولَى

الْعِلْمُ صَيْدٌ وَشِرَاكُهُ النِّيَّةُ، فَمَنْ صَحَّتْ نِيَّتُهُ وَحَسُنَ قَصْدُهُ، صَادَ مِنَ الْعِلْمِ دُرَرَهُ، وَنَالَ مِنْهُ غُرَرَهُ، وَمَنْ فَسَدَتْ نِيَّتُهُ وَسَاءَ قَصْدُهُ لَمْ يُصِبْ مِنَ الصَّيْدِ إِلَّا أَرْذَلَهُ، مِمَّا لَا يَقْصِدُهُ صَائِدٌ، وَلَا يُبَشِّرُ بِهِ رَائِدٌ، وَمِنْ كُنُوزِ السُّنَّةِ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»[1]، وَبِتَصْحِيحِ النِّيَّاتِ تُدْرَكُ الْغَايَاتُ.

وَمَدَارُ نِيَّةِ الْعِلْمِ عَلَى أَرْبَعَةِ أُمُورٍ، مَنِ اجْتَمَعَ لَهُ قَصْدُهَا كَمُلَتْ نِيَّتُهُ فِي الْعِلْمِ:

أَوَّلُهَا: رَفْعُ الْجَهْلِ عَنِ النَّفْسِ، بِتَعْرِيفِهَا طَرِيقَ الْعُبُودِيَّةِ.

وَثَانِيهَا: رَفْعُ الْجَهْلِ عَنِ الْخَلْقِ بِإِرْشَادِهِمْ إِلَى مَصَالِحِ دُنْيَاهُمْ وَآخِرَتِهِمْ.

وَثَالِثُهَا: الْعَمَلُ بِهِ، فَإِنَّ الْعِلْمَ يُرَادُ لِلْعَمَلِ.

وَرَابِعُهَا: إِحْيَاؤُهُ وَحِفْظُهُ مِنَ الضَّيَاعِ ، وَهَذَا الْمَعْنَى مُتَأَكِّدٌ فِي حَقِّ الْمُتَأَهِّلِ الْمُهَيَّأِ لَهُ الْقَادِرِ عَلَيْهِ.

وَإِلَيْهِنَّ أَشَرْتُ بِقَوْلِي:

وَنِيَّةٌ لِلْعِلْمِ رَفْعُ الْجَهْلِ عَمْ ... عَنْ نَفْسِهِ فَغَيْرِهِ مِنَ النَّسَمْ
وَالثَّالِثُ التَّحْصِينُ لِلْعُلُومِ مِنْ ... ضَيَاعِهَا وَعَمَلٌ بِهِ زُكِنْ

وَمَعْنَى (عَمَّ) شَمُلَ، وَ(النَّسَمُ): النُّفُوسُ، جَمْعُ نَسَمَةٍ، وَ(زُكِنْ) أَيْ ثَبَتْ.

---

(١) أخرجه البخاري (١) ك: بدء الوحي (١) ب: كيف كان بدء الوحي إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ، رقم (١)، ومسلم (٣٤) ك: الإمارة (٤٥) ب: قوله ﷺ: ((إنما الأعمال بالنية))، رقم (١٩٠٧)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

البَيِّنَةُ الثَّانِيَةُ

الْعَزْمُ مَرْكَبُ الصَّادِقِينَ، وَمَنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ عَزِيمَةٌ لَمْ يَفْرَحْ بِغَنِيمَةٍ، فَإِنَّ الْعَزَائِمَ جَلَّابَةُ الْغَنَائِمِ، فَاعْزِمْ تَغْنَمْ، وَإِيَّاكَ وَأَمَانِيَّ[1] البَطَّالِينَ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ «الْفَوَائِدِ»[2]: (إِذَا طَلَعَ نَجْمُ الهِمَّةِ فِي ظَلَامِ لَيْلِ الْبَطَالَةِ، وَرَدِفَهُ قَمَرُ الْعَزِيمَةِ، أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا).

وَإِنَّمَا يَحُلُّ عُقْدَةَ الْعَزْمِ ثَلَاثُ أَيْدٍ:

أَوَّلُهَا: إِلْفُ الْعَوَائِدِ، مِمَّا جَرَى عَلَيْهِ الْخَلْقُ فِي رُسُومِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ.

وَثَانِيهَا: وَصْلُ الْعَلَائِقِ، وَهِيَ تَعَلُّقَاتُ الْقَلْبِ وَصِلَاتُهُ.

وَثَالِثُهَا: قَبُولُ الْعَوَائِقِ، مِنَ الْحَوَادِثِ الْقَدَرِيَّةِ الَّتِي تَكْتَسِحُ الْعَبْدُ مِنْ قِبَلِ غَيْرِهِ.

فَإِنَّ لَهُنَّ سُلْطَانًا عَلَى النَّفْسِ يَحُولُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ مَطْلُوبِهِ، وَيُقْعِدُهُ عَنْ مَرْغُوبِهِ، لَا يُدْفَعُ إِلَّا بِحَسْمِ مَادَّتِهِنَّ.

فَالْعَوَائِدُ تُحْسَمُ بِالْهَجْرِ، وَالْعَلَائِقُ تُحْسَمُ بِالْقَطْعِ، وَالْعَوَائِقُ تُحْسَمُ بِالرَّفْضِ، فَمَنْ هَجَرَ الْعَوَائِدَ وَقَطَعَ الْعَلَائِقَ وَرَفَضَ الْعَوَائِقَ فَهُوَ سُلْطَانُ نَفْسِهِ. وَحُسَامُ النُّفُوسِ أَجَلُّ مِنْ حُسَامِ الرُّؤُوسِ.

وَتَمُدُّ قُوَّةَ الْعَزْمِ ثَلَاثَةُ مَوَارِدَ:

أَوَّلُهَا: مَوْرِدُ الْحِرْصِ عَلَى مَا يَنْفَعُ.

وَثَانِيهَا: مَوْرِدُ الاسْتِعَانَةِ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَثَالِثُهَا: مَوْرِدُ خَلْعِ ثَوْبِ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ.

وَهُنَّ فِي قَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَلَا تَعْجِزْ[3]»[4]، فَجُمْلَةُ الثَّلَاثِ مَنَابِعُ الْمَوَارِدِ، وَاحِدًا وَاحِدًا؛ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ.

وَمِمَّا يُحَرِّكُ الْعَزَائِمَ إِدْمَانُ مُطَالَعَةِ سِيَرِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، فَالاعْتِبَارُ بِحَالِهِمْ، وَتَعَرُّفُ مَصَاعِدَ هِمَمِهِمْ يُثَوِّرُ عَزْمَتَكَ، وَيُقَوِّي شَكِيمَتَكَ، فَلَا تَحْرِمْ نَفْسَكَ مِنْ آثَارِهِمْ، وَطَالِعْ مَا اسْتَطَعْتَ مِنْ سِيَرِهِمْ.

---

(١) أماني بالتخفيف لغة قليلة، والكثيرة أمانيّ بالتشديد.

(١) ص ٥١.

(٣) تعجَز، صحيحة لٰكِن الأفصح تعجِز.

(١) أخرجه مسلم في (٤٧) ك: القدر، (٨) ب: في الأمر بالقوّة وترك العَجز، رقم (٦٩٤٥)، من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

البَيِّنَةُ الثَّالِثَةُ

التَّبَحُّرُ فِي الْعِلْمِ فَضِيلَةٌ، وَالْـمُشَارَكَةُ فِي كُلِّ فَنٍّ غَنِيمَةٌ.

قَالَ يَحْيَى بْنُ مُجَاهِدٍ رَحمه الله تعالى: (كُنْتُ آخُذُ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ طَرَفًا، فَإِنَّ سَمَاعَ الإِنْسَانِ قَوْمًا يَتَحَدَّثُونَ، وَهُوَ لَا يَدْرِي مَا يَقُولُ غُمَّةٌ عَظِيمَةٌ).

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ ابْنُ حَزْمٍ كَتِيبَةُ الْأَنْدَلُسِيِّينَ – عَقِبَ ذِكْرِهِ لَهُ -: (وَلَقَدْ صَدَقَ)[1].

وَمَا أَحْسَنَ عِنْدَ أَهْلِ الذَّوْقِ وَالْوَجْدِ مِنْ طُلَّابِ الْـمَعَانِي قَوْلُ ابْنِ الْوَرْدِيِّ:

مِنْ كُلِّ فَنٍّ خُذْ وَلَا تَجْهَلْ بِهِ ... فَالْحُرُّ مُطَّلِعٌ عَلَى الْأَسْرَارِ

وَيَقْبُحُ بِالْـمَرْءِ أَنْ تَكُونَ لَهُ قُدْرَةٌ وَلَيْسَتْ لَهُ هِمَّةٌ، فَيَقْعُدُ عَنِ اسْتِنْبَاطِ عِلْمٍ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ، وَيَتَبَاعَدُ عَنْهُ مَعَ قُرْبِ طَرِيقِ وُصُولِهِ إِلَيْهِ.

وَهٰذَا ضَرْبٌ مِنَ الْـحِرْمَانِ، فَإِنَّ الْعِلْمَ خَيْرٌ، وَإِنَّ الْـمُؤْمِنَ لَا يَشْبَعُ مِنَ الْـخَيْرِ حَتَّى يَكُونَ مُنْتَهَاهُ إِلَى أَصْلِهِ الزَّخَّارِ وَمَنَازِلِهِ الْأُولَى.

فَحَيَّ عَلَى جَنَّاتِ عَدْنٍ فَإِنَّهَا ... مَنَازِلُكَ الْأُولَى وَفِيهَا الْـمُخَيَّمُ

وَمِنْ خَصَائِصِ عُلُومِ الدِّيَانَةِ ارْتِبَاطُ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ فَمَحِلُّهَا إِلَى النُّورَيْنِ: الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ، وَهُمَا وَحْيٌ مِنَ الله، فَإِذَا كَانَ الْـمَنْبَعُ وَاحِدًا كَانَ الارْتِبَاطُ وَاضِحًا.

قَالَ الزَّبِيدِيُّ رحمه الله فِي «أَلْفِيَّةِ السَّنَدِ»:

فَإِنَّ أَنْوَاعَ الْعُلُومِ تَخْتَلِطْ ... وَبَعْضُهَا بِشَرْطِ بَعْضٍ مُرْتَبِطْ

وَالتَّفْرِيقُ بَيْنَهَا بِالاقْتِصَارِ عَلَى فَنٍّ وَاحِدٍ دُونَ تَحْصِيلِ أُصُولِ بَقِيَّةِ الْفُنُونِ: مِنْ آثَارِ الاقْتِدَاءِ بِعُلُومِ أَهْلِ الدُّنْيَا الَّتِي سَرَتْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْـمُشْتَغِلِينَ بِعُلُومِ الشَّرِيعَةِ.

وَثُبُوتُ الْقَدَمِ عَلَى الصِّرَاطِ الْأَتَمِّ هُوَ فِي تَحْصِيلِ أُصُولِ الْفُنُونِ دُونَ اتِّسَاعٍ فِيهَا، ثُمَّ التَّشَاغُلُ بِمَا شَاءَ الْعَبْدُ مِنْهَا، مِمَّا وَجَدَ قُوَّتَهُ فِيهِ، وَقُدْرَتَهُ عَلَيْهِ.

أَمَّا بُلُوغُ الْغَايَةِ وَحُصُولُ الْكِفَايَةِ فِي عُلُومِ الدِّيَانَةِ جَمِيعًا فَلَيْسَ مُتَهَيِّئًا لِكُلِّ أَحَدٍ، بَلْ يَخْتَصُّ بِهِ اللهُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ، وَمُلَاحَظَةُ الاخْتِصَاصِ تُهَوِّنُ الْـمُغَامَرَةَ فِيهِ وَتَجَشُّمُ الْعَنَاءِ حَتَّى يَنَالَ الْـمُنَى.

لأَسْتَسْهِلَنَّ الصَّعْبَ أَوْ أُدْرِكَ الْـمُنَى ... فَمَا انْقَادَتِ الْآمَالُ إِلَّا لِصَابِرِ

---

(١) انظر: رسالة ((مراتب العلوم)) المسرودة في مجموع رسائل ابن حزمٍ ٤/ ٧٢.

البَيِّنَةُ الرَّابِعَةُ

يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ هَمُّ الطَّالِبِ الْأَعْظَم تَحْصِيلَ عُلُومَ الْـمَقَاصِدِ، وَالتَّفَقُّهِ فِي الْوَحْيَيْنِ، فَلَا يَشْتَغِلُ بِغَيْرِهَا إِلَّا بِقَدْرِ مَا يَقِفُ بِهِ عَلَى مَقَاصِدِ الْعِلْمِ الْـمَنْظُورِ فِيهِ، دُونَ إِدَامَةِ نَظَرٍ تُبَلِّغُهُ غَوْرَهُ، فَإِنَّ الْعُلُومَ الْآلِيَّةَ كَثِيرَةُ الْعَدَدِ، ثَقِيلَةُ الْعُدَدِ، وَهِيَ لِلْعِلْمِ بِمَنْزِلَةِ الْـمِلْحِ للطَّعَامِ إِنْ زَادَ سَاءَ وَإِنْ نَقَصَ سَاءَ.

قَالَ ابْنُ خَلْدُونَ رحمه الله فِي «الْـمُقَدِّمَةِ»[1]: (اعْلَمْ أَنَّ الْعُلُومَ الْـمُتَعَارَفَةَ بَيْنَ أَهْلِ الْعُمْرَانِ عَلَى صِنْفَيْنِ:

- عُلُومٌ مَقْصُودَةٌ بِالذَّاتِ؛ كَالشَّرْعِيَّاتِ،
- وَعُلُومٌ هِيَ آلَةٌ وَوَسِيلَةٌ لِـهٰذِهِ الْعُلُومِ.

فَأَمَّا الْعُلُومُ الَّتِي هِيَ مَقَاصِدُ فَلَا حَرَجَ فِي تَوْسِعَةِ الْكَلَامِ فِيهَا، وَتَفْرِيعِ الْـمَسَائِلِ، وَاسْتِكْشَافِ الْأَدِلَّةِ وَالْأَنْظَارِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَزِيدُ طَالِبَهَا تَمَكُّنًا مِنْ مَلَكَتِهِ، وَإِيضَاحًا لِـمَعَانِيهَا الْـمَقْصُودَةَ.

وَأَمَّا الْعُلُومُ الَّتِي هِيَ آلَةٌ لِغَيْرِهَا – مِثْلُ الْعَرَبِيَّةَ وَالْـمَنْطِقُ وَأَمْثَالُهَا – فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُنْظَرَ فِيهَا إِلَّا مِنْ حَيْثُ هِيَ آلَةٌ لِذَلِكَ الْغَيْرِ فَقَطْ، وَلَا يُوَسَّعُ فِيهَا الْكَلَامُ وَلَا تُفَرَّعُ الْـمَسَائِلُ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مُخْرِجٌ لَهَا عَنِ الْـمَقْصُودِ؛ إِذِ الْـمَقْصُودِ مِنْهَا مَا هِيَ آلَةٌ لَهُ لَا غَيْرَ، فَكَلَّمَا خَرَجَتْ عَنْ ذَلِكَ خَرَجَتْ عَنِ الْـمَقْصُودِ، وَصَارَ الاشْتِغَالُ بِهَا لَغْوًا، مَعَ مَا فِيهِ مِنْ صُعُوبَةِ الْـحُصُولِ عَلَى مَلَكَتِهَا بِطُولِهَا وَكَثْرَةِ فُرُوعِهَا، وَرُبَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ عَائِقًا عَنْ تَحْصِيلِ الْعُلُومِ الْـمَقْصُودَةِ بِالذَّاتِ؛ لِطُولِ وَسَائِلِهَا، مَعَ أَنَّ شَأْنَهَا أَهَمُّ، وَالْعُمْرُ يَقْصُرُ عَنْ تَحْصِيلِ الْجَمِيعِ عَلَى هٰذِهِ الصُّورَةِ).ا.هـ

وَلَا يَتَأَتَّى لِلطَّالِبِ الظَّفَرُ بِمَا يُؤَمِّلُهُ مِنْ عُلُومِ الْـمَقَاصِدِ وَالْوَسَائِلِ حَتَّى يَكُونُ:

- نَهَّازًا لِلْفُرَصِ.
- مُبْتَدِئًا لِلْعِلْمِ مِنْ أَوَّلِهِ.
- آتِيًا لَهُ مِنْ مَدْخَلِهِ.
- مُنْصَرِفًا عَنِ التَّشَاغُلِ بِطَلَبِ مَا لَا يَضُرُّ جَهْلِهِ.
- مُلِحًّا فِي ابْتِغَاءِ دَرْكِ مَا اسْتَصْعَبَ عَلَيْهِ، غَيْرَ مُهْمِلٍ لَهُ.

قَالَ الْـمَاوَرْدِيُّ رحمه الله فِي «أَدَبِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ»[2]: (فَيَنْبَغِي لِطَالِبِ الْعِلْمِ أَلَا يَنِيَ فِي طَلَبِهِ، وَيَنْتَهِزَ الْفُرْصَةَ بِهِ، فَرُبَّمَا شَحَّ الزَّمَانُ بِمَا سَمَحَ، وَضَنَّ بِمَا مَنَحَ.

(١) ص ٣٤٣.

(١) ص٧٦.

وَيَبْتَدِئُ مِنَ الْعِلْمِ بِأَوَّلِهِ، وَيَأْتِيهِ مِنْ مَدْخَلِهِ، وِلَا يَتَشَاغَلُ بِطَلَبِ مَا لَا يَضَرُّ جَهْلُهُ، فَيَمْنَعُهُ ذَلِكَ مِنْ إِدْرَاكِ مَا لَا يَسَعُهُ جَهْلُهُ، فَإِنَّ لِكُلِّ عِلْمٍ فُضُولًا مُذْهِلَةً، وَشُذُورًا مُشْغِلَةً، إِنْ صَرَفَ إِلَيْهَا نَفْسَهُ قَطَعَتْهُ عَمَّا هُوَ أَهَمُّ مِنْهَا).ا.هـ

ثُمَّ قَالَ:

(وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَدْعُوَهُ ذَلِكَ إِلَى تَرْكِ مَا اسْتَصْعَبَ عَلَيْهِ، إِشْعَارًا لِنَفْسِهِ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ فُضُولِ عَلْمِهِ، وَإِعْذَارًا لَهَا فِي تَرْكِ الاشْتِغَالِ بِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مَطِيَّةُ النَّوْكَى[1]، وَعُذْرُ الْـمُقَصِّرِينَ.

وَمَنْ أَخَذَ مِنَ الْعِلْمِ مَا تَسَهَّلَ، وَتَرَكَ مِنْهُ مَا تَعَذَّرَ، كَانَ كَالْقَنَّاصِ: إِذَا امْتَنَعَ عَلَيْهِ الصَّيْدُ تَرَكَهُ، فَلَا يَرْجِعُ إِلَّا خَائِبًا؛ إِذْ لَيْسَ يَرى الصَّيْدَ إِلَّا مُمْتَنِعًا؛ كَذَلِكَ الْعِلْمُ: طَلَبُهُ صَعْبٌ عَلَى مَنْ جَهِلَهُ، سَهْلٌ عَلَى مَنْ عَلِمَهُ؛ لِأَنَّ مَعَانِيهِ الَّتِي يُتَوَصَّلُ إِلَيْهَا مُسْتَوْدَعَةٌ فِي كَلَامٍ مُتَرْجِمٍ عَنْهَا، وَكُلُّ كَلَامٍ مُسْتَعْمَلٍ فَهُوَ يَجْمَعُ لَفْظًا مَسْمُوعًا، وَمَعْنًى مَفْهُومًا؛ فَاللَّفْظُ كَلَامٌ يُعْقَلُ بِالسَّمْعِ، وَالْـمَعْنَى تَحْتَ اللَّفْظِ يُفْهَمُ بِالْقَلْبِ)[2].ا.هـ

(١) أي الحمقى.

(٢) ((أدب الدُّنيا والدِّين)) ص٧٧.

البَيِّنَةُ الْخَامِسَةُ

مِمَّا يُعِينُ الطَّالِبَ عَلَى الاتِّصَافِ بِمَا سَبَقَ جَمْعُ نَفْسَهُ عَلَى تَلَقِّي الأُصُولِ تَحَفُّظًا وَتفَهُّمًا، فَإِنَّ إِفْرَاغَ زَهْرَةِ الْعُمْرِ وَقُوَّةِ النَّفْسِ فِي طِلَابِهَا أَحْسَنُ الانْتِهَازِ لِلْفُرْصَةِ وَأَكْمَلُهُ، وَبِهَا ابْتِدَاءُ الْعُلُومِ مِنْ أَوَائِلِهَا، وَإِتْيَانُهَا مِنْ مَدَاخِلِهَا.

وَهِيَ سُلَّمُ الارْتِقَاءِ إِلَى الحِـذْقِ فِي الْعِلْمِ، وَتَحْصِيلِ مَلَكَةِ الْفَنِّ، فَإِنَّ الحِـذْقَ يُدْرَكُ بِثَلَاثَةِ أُمُورٍ:

أَوَّلُهَا: الْإِحَاطَةُ بِمَبَادِئِ الْعِلْمِ وَقَوَاعِدِهِ.

ثَانِيهَا: الْوُقُوفُ عَلَى مَسَائِلِهِ.

ثَالِثُهَا: اسْتِنْبَاطُ فُرُوعِهِ مِنْ أُصُولِهِ.

وَأَيْسَرُ سَبِيلٍ لِلتَّحَقُّقِ بِهَذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ: بَقْرُ الْأُصُولِ، وَاسْتِبْطَانُ مَنْطُوقِهَا وَمَفْهُومِهَا، حَتَّى يَمْتَلِئَ الْقَلْبُ بِحَقَائِقِهَا، وَتَثْبُتَ فِي النَّفْسِ مَقَاصِدُهَا، فَيَصِيرُ الْـمُمَارِسُ لَهَا ذَا حِـذْقٍ وَبَصِيرَةٍ بِهَا.

قَالَ ابْنُ خَلْدُونَ فِي «مُقَدِّمَتِهِ»[1] بَعْدَ كَلَامٍ سَبَقَ: (وَذَلِكَ أَنَّ الحِذْقَ فِي الْعِلْمِ وَالتَّفَنُّنَ فِيهِ وَالاسْتِيلَاءَ عَلَيْهِ، إِنَّمَا هُوَ بِحُصُولِ مَلَكَةٍ فِي الْإِحَاطَةِ بِمَبَادِئِهِ وَقَوَاعِدِهِ، وَالْوُقُوفِ عَلَى مَسَائِلِهِ، وَاسْتِنْبَاطِ فُرُوعِهِ مِنْ أُصُولِهِ، وَمَا لَمْ تَحْصُلْ هَذِهِ الْـمَلَكَةُ لَمْ يَكُنِ الحِذْقُ فِي ذَلِكَ الْفَنِّ الْـمُتَنَاوِلِ حَاصِلًا.

وَهَذِهِ المَلَكَةُ غَيْرُ الْفَهْمِ وَالْوَعْيِ؛ لِأَنَّا نَجِدُ فَهْمَ الْـمَسْأَلَةِ الْوَاحِدَةِ مِنَ الْفَنِّ الْوَاحِدِ وَوَعِيَهَا مُشْتَرَكًا بَيْنَ مَنْ شَدَا فِي ذَلِكَ الْفَنِّ[2]، وَبَيْنَ مَنْ هُوَ مُبْتَدِئٌ فِيهِ، وَبَيْنَ الْعَامِّيِّ الَّذِي لَـمْ يُحَصِّلْ عِلْمًا، وَبَيْنَ الْعَالِـمِ النِّحْرِيرِ، وَالْـمَلَكَةُ إِنَّمَا هِيَ لِلعَالِـمِ أَوْ الشَّادِي فِي الْفُنُونِ دُونَ مَنْ سِوَاهُمَا، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْـمَلَكَةُ غَيْرُ الْفَهْمِ وَالْوَعْيِ).ا.هـ

---

(١) ص٣٤١-٣٤٢.

(١) الشَّدوُ: كلُّ قليلٍ من كثيرٍ، يُقالُ: شدا من العلم شَدْوًا فهو شادي؛ إذا أَحسن منه حظًّا.

البَيِّنَةُ السَّادِسَةُ

إِنَّ الْوُصُولَ إِلَى الحَذْقِ فِي الْعِلْمِ لَا يَتَهَيَّأُ بِأَخْذِهِ دُفْعَةً وَاحِدَةً، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ تَدْرِيجِ النَّفْسِ فِيهِ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَيَتَحَقَّقُ هَذَا بِتكْرَارِ دِرَاسَةِ الْفَنِّ فِي عِدَّةِ أُصُولٍ لَهُ، تَنْتَظِمُ ارْتِفَاعًا مِنَ الْإِيجَازِ إِلَى التَّوَسُّطِ ثُمَّ الطُّولِ، وَقَدْ يَكُونُ لِكُلِّ مَرْتَبَةٍ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَقَدْ تَضُمُّ أَصْلَيْنِ اثْنَيْنِ مَعًا.

وَتَخْتَصُّ الْأُصُولُ الْـمُوجَزَةُ بِكَوْنِهَا جَامِعَةً لِلْمَسَائِلِ الْكِبَارِ فِي كُلِّ بَابٍ؛ ثُمَّ تَتَزَايَدُ مَسَائِلُهُ فِي الْأُصُولِ الْـمُتَوَسِّطَةِ وَالْـمُطَوَّلَةِ.

وَمِفْتَاحُ الْانْتِفَاعِ بِكُلٍّ هُوَ أَنْ يَتَلَقَّى الطَّالِبُ الْأُصُولَ الْـمُوجَزَةَ عَلَى سَبِيلِ الإِجْمَالِ؛ لِيَتَهَيَّأَ بِذَلِكَ لَهُ فَهْمُ الْفَنِّ وَتَحْصِيلُ مَسَائِلِهِ.

وَيَتَلَقَّى بَعْدَهَا الأُصُولَ الْـمُتَوَسِّطَةَ مُسْتَوْفَاةَ الشَّرْحِ وَالْبَيَانِ، مَعَ ذِكْرِ مَا هُنَالِكَ مِنَ الْـخِلَافِ وَوَجْهِهِ، فَتَقْوَى بِذَلِكَ مَلَكَتُهُ فِي الْفَنِّ.

ثُمَّ يَتَلَقَّى بَعْدَهَا الْأُصُولَ الْـمُطَوَّلَةَ؛ مُسْتَكْمِلًا شَرْحَهَا وَبَيَانَهَا وَمَعْرِفَةَ خِلَافِيَّاتِهَا، وَيُزَادُ لَهُ حَلُّ الْـمُشْكِلَاتِ، وَتَوْضِيحُ الْـمُبْهَمَاتِ، وَفَتْحُ الْـمُقْفَلَاتِ، فَيَصِلُ بِهَذِهِ الْعُدَّةِ إِلَى مَلَكَةِ الْفَنِّ.

وَالْـمُرْشِدِ إِلَى هَذَا كُلِّهِ هُوَ الدَّرَّاكَةُ الْبَصِيرُ ابْنُ خَلْدُونَ إِذْ يَقُولُ فِي «مُقَدِّمَتِهِ»(١):

(اعْلَمْ أَنَّ تَلْقِينَ الْعُلُومِ لِلْمُتَعَلِّمِينَ إِنَّمَا يَكُونُ مُفِيدًا إِذَا كَانَ عَلَى التَّدْرِيجِ: شَيْئًا فَشَيْئًا وَقَلِيلًا قَلِيلًا، يُلْقِي عَلَيْهِ أَوَّلًا مَسَائِلَ مِنْ كُلِّ بَابٍ مِنَ الْفَنِّ هِيَ أُصُولُ ذَلِكَ الْبَابُ، وَيُقَرِّبُ لَهُ فِي شَرْحِهَا عَلَى سَبِيلِ الْإِجْمَالِ، وَيُرَاعِي فِي ذَلِكَ قُوَّةَ عَقْلِهِ وَاسْتِعْدَادَهُ لِقَبُولِ مَا يُورِدُ عَلَيْهِ، حَتَّى يَنْتَهِي إِلَى آخِرِ الْفَنِّ، وَعِنْدَ ذَلِكَ يَحْصُلُ لَهُ مَلَكَةٌ فِي ذَلِكَ الْعِلْمِ؛ إِلَّا أَنَّهَا جُزْئِيَّةٌ وَضَعِيفَةٌ، وَغَايَتُهَا أَنَّهَا هَيَّأَتْهُ لِفَهْمِ الْفَنِّ وَتَحْصِيلِ مَسَائِلِهِ.

ثُمَّ يَرْجِعُ بِهِ إِلَى الْفَنِّ ثَانِيَةً؛ فَيَرْفَعُهُ فِي التَّلْقِينِ عَنْ تِلْكَ الرُّتْبَةِ إِلَى أَعْلَى مِنْهَا، وَيَسْتَوْفِي الشَّرْحَ وَالْبَيَانَ، وَيَخْرُجُ عَنِ الْإِجْمَالِ، وَيَذْكُرُ لَهُ مَا هُنَالِكَ مِنَ الْخِلَافِ وَوَجْهُهُ، إِلَى أَنْ يَنْتَهِي إِلَى آخِرِ الْفَنِّ فَتَجُودَ مَلَكَتُهُ.

ثُمَّ يَرْجِعُ بِهِ وَقَدْ شَدَا؛ فَلَا يَتْرُكُ عَوِيصًا وَلَا مُبْهَمًا وَلَا مُنْغَلِقًا إِلَّا وَضَّحَهُ وَفَتَحَ لَهُ مُقْفَلَهُ، فَيَخْلُصُ مِنَ الْفَنِّ وَقَدْ اسْتَوْلَى عَلَى مَلَكَتِهِ.

هَذَا وَجْهُ التَّعْلِيمِ الْـمُفِيدِ، وَهُوَ كَمَا رَأَيْتَ إِنَّمَا يَحْصُلُ فِي ثَلَاثِ تَكْرَارَاتٍ، وَقَدْ يَحْصُلُ لِلْبَعْضِ فِي أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ بِحَسَبِ مَا يُخْلَقُ لَهُ وَيَتَيَسَّرُ عَلَيْهِ).انْتَهَى كَلَامُهُ.

وَهُوَ شَبِيهٌ بِاجْتِمَاعِ الْـخَلْقِ عَلَى تَرْتِيبِ الدِّرَاسَةِ النِّظَامِيَّةِ فِيمَا دُونَ الْـجَامِعَةِ = فِي مَرَاحِلَ ثَلَاثٍ: الابْتِدَائِيَّةِ وَالْـمُتَوَسِّطَةِ وَالثَّانَوِيَّةِ.

---

(١) ص ٤٥٨.

البَيِّنَةُ السَّابِعَةُ

تُؤْخَذُ أُصُولُ الْفُنُونِ حِفْظًا وَفَهْمًا عَنْ شَيْخٍ عَارِفٍ مُتَّصِفٍ بِوَصْفَيْنِ اثْنَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: الْأَهْلِيَّةُ فِي الْفَنِّ، بِتَمَكُّنِهِ فِي النَّفْسِ.

وَالْآخَرُ: النُّصْحُ وَحُسْنُ الْمَعْرِفَةِ بِطُرُقِ التَّعْلِيمِ.

فَإِنَّ الْعِلْمَ خِزَانَةُ الشَّرِيعَةِ، وَمَفَاتِيحُ الخِزَانَةِ بِأَيْدِي الْعُلَمَاءِ؛ لِأَنَّهُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَمَنْ لَمْ يَفْتَحْ لَهُ الْخَازِنُ كَيْفَ يَنَالُ مُبْتَغَاهُ.

وَدَلَائِلُ الشَّرْعِ وَالْعَقْلِ مُتَوَاطِئَةٌ عَلَى تَقْرِيرِ هَذَا الْمَعْنَى، وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُدْرِكُ الْعِلْمَ دُونَ شَيْخٍ مُرْشِدٍ فَلَا يَتَعَنَّ.

وَالشُّيُوخُ لَهُمْ دَرَجَاتٌ وَمَرَاتِبُ يَتَفَاضَلُونَ فِيهَا، وَالَّذِي تَنْبَغِي رِعَايَتُهُ فِيهِمْ هُوَ الْوَصْفَانِ الْمَذْكُورَانِ آنِفًا، فَمَنْ اجْتَمَعَا فِيهِ مِنَ الشُّيُوخِ فَهُوَ أَوْلَى بِالْأَخْذِ عَنْهُ، وَإِنْ كَانَ غَيْرُهُ أَعْلَمُ مِنْهُ.

فَمَنْ لَمْ يَكُنْ نَاصِحًا عَارِفًا بِطُرُقِ التَّعْلِيمِ أَضَرَّ بِالْمُتَعَلِّمِينَ وَأَوْرَدَهُمْ مَوَارِدَ الْأَذَى.

فَاحْرِصْ عَلَى مَنْ تَقَدَّمَ وَصْفُهُ، فَإِنْ لَمْ يَتَيَسَّرْ مِثْلُهُ أَوْ مَنْ يُقَارِبُهُ مِنَ الشُّيُوخِ، وَفُقِدَ الشَّيْخُ الْمُعَلِّمُ فِي بَلَدٍ أَوْ زَمَنٍ، أَوْ شَقَّ الْوُصُولُ إِلَيْهِ، أَمْكَنَ سُلُوكُ أَحَدِ الطُّرُقِ الْآتِيَةِ:

الْأَوَّلُ: اسْتِحْضَارُ شَرْحٍ مُعْتَمَدٍ لِلْأَصْلِ الْمَقْصُودِ، وَتَفَهُّمُ مَعَانِيهِ، مَعَ مُرَاجَعَةِ شَيْخٍ عَارِفٍ بِالْفَنِّ فِيمَا أَشْكَلَ مِنْهُ.

الثَّانِي: الزِّيَادَةُ عَلَى شَرْحٍ وَاحِدٍ مَعَ سُلُوكِ مَا مَضَى، وَمَحَلُّ هَذَا إِذَا كَانَتْ شُرُوحُ الْأَصْلِ تَقْصُرُ عَنْ تَوْضِيحِ مَعَانِيهِ، فَلَا بُدَّ مِنْ ضَمِّ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ، أَوْ كَانَ الطَّالِبُ جَيِّدَ الْفَهْمِ قَوِيَّ الْعَقْلِ.

الثَّالِثُ: الزِّيَادَةُ عَلَى الْمَرْتَبَةِ السَّابِقَةِ بِمُطَالَعَةِ مُدَوَّنَاتِ الْفَنِّ الْمُعْتَمَدَةِ، وَلَا يَصْلُحُ هَذَا الطَّرِيقُ إِلَّا إِذَا كَانَتِ الشُّرُوحُ عَلَى الحَالِ الْمَذْكُورَةِ سَابِقًا، وَالطَّالِبُ فَوْقَ مَا تَقَدَّمَ.

وَكَمَا عَرَفْتَ فَإِنَّ اخْتِيَارَ طَرِيقٍ دُونَ آخَرَ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ قُوَّةِ الْفَهْمِ، وَمَحَلِّ الْفَنِّ الْمَقْصُودِ مِنَ الْعُلُومِ، وَمَنْزِلَةِ الْأَصْلِ الْمُوصِلِ إِلَى فَهْمِهِ بَيْنَ كُتُبِهِ.

وَمِنْ أُصُولِ المَلَكَةِ العِلْمِيَّةِ مَا يُمْكِنُ تَحْصِيلُهُ دُونَ الحَاجَةِ إِلَى عَرْضِهِ عَلَى شَيْخٍ – مَعَ كَوْنِ ذَلِكَ أَكْمَلَ –؛ كَـ «الْبِدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ» – مَثَلًا –، لَكِنَّ هَذَا الضَّرْبَ مِنَ الْأُصُولِ لَا تَحْسُنُ مُطَالَعَتُهُ إِلَّا بَعْدَ التَّضَلُّعِ مِنْ مُهِمَّاتِ الْعُلُومِ لِتَعْظُمَ مَنْفَعَتُهُ، وَقَدْ يَحْتَاجُ الطَّالِبُ إِلَى عَرْضِ شَيْءٍ مِنْهُ عَلَى شَيْخٍ يَكْشِفُ مَعْنَاهُ وَيُوَضِّحُ مَغْزَاهُ.

هَذَا كُلُّهُ حَظُّ الطَّالِبِ مِنْ صِنَاعَةِ الْفَهْمِ عِنْدَ فَقْدِ الشَّيْخِ، أَمَّا صِنَاعَةُ الْحِفْظِ فَلَهُ أَنْ يَعْرِضَ مَحْفُوظَهُ مِنْ نُسْخَةٍ مُصَحَّحَةٍ لِلْأَصْلِ عَلَى قَرِينٍ لَهُ ذِي مَعْرِفَةٍ بِالْفَنِّ، فَإِنْ عُدِمَ الْقَرِينُ الْمَوْصُوفُ قَصَدَ غَيْرَهُ، مَعَ الالْتِزَامِ بِنُسَخِ الْأُصُولِ المتقنة الموثوقِ بِهَا.

فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيَرْتَحِلْ مِنْ بَلَدِهِ فَإِنَّ العِلْمَ لَا يَنْعَشُ فِيهَا، وَلْيَطْلُبْ بَلَدًا يَجِدُ فِيهِ بُغْيَتَهُ، وَإِلَّا بَقِيَ فِي ظُلْمَةِ الْجَهْلِ وَالْحَيْرَةِ.

البَيِّنَةُ الثَّامِنَةُ

مِنَ الْقَوَاعِدِ الْأُصُولِ فِي إِدْرَاكِ الْعِلْمِ الْـمَأْمُولِ: تَقْلِيلُ الدُّرُوسِ وَإِحْكَامُ الْـمَدْرُوسِ.

وَعُرْوَةُ الْإِحْكَامِ الْوُثْقَى هِيَ مُلَازَمَةُ التَّكْرَارِ للدَّرْسِ، وَالْـحِرْصُ عَلَى مُذَاكَرَةِ الْأَقْرَانِ، فَفِي الْـمُذَاكَرَةِ إِحْيَاءُ الذَّاكِرَةِ، وَالْعِلْمُ غَرْسُ الْقَلْبِ، وَالْغَرْسُ بِلَا سُقْيَا يَمُوتُ، وَسُقْيَا الْعِلْمِ مُذَاكَرَتُهُ.

وَمِنْ بَدَائِعِ الْأَلْفَاظِ الْـمُسْتَجَادَةِ مِنْ قَرَائِحِ الْـحُفَّاظِ قَوْلِ أَبِي الحَجَّاجِ المِزِّيِّ الْـحَافِظُ رحمه الله:

مَنْ حَازَ الْعِلْمَ وَذَاكَرَهُ   حَسُنَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتُهْ
فَأَدِمْ لِلْعِلْمِ مُذَاكَرَةً   فَحَيَاةُ الْعِلْمِ مُذَاكَرَتُهْ[1]

وَعَاقِبَةُ تَرْكُ الْـمُذَاكِرَةُ فَقْدُ الْعِلْمُ.

قَالَ ابْنُ شِهَابٍ الزُّهْرِيُّ رحمه الله: (إِنَّمَا يُذهِبُ الْعِلْمَ النِّسْيَانُ، وَتَرْكُ الْـمُذَاكَرَةِ)[2].

وَتَرْكُ الاسْتِذْكَارِ بَعْدَ التَّحَفُّظِ وَالتَّفَهُّمِ يَضِيعُ بِهِ زَمَنٌ طَوِيلٌ فِي ابْتِغَاءِ اسْتِرْجَاعِ مَفْهُومٍ ذَهَبَتْ مَعَانِيهِ، أَوْ مَحْفُوظٍ نُسِيَتْ مَبَانِيهِ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ[3] عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الإِبِلِ الْـمُعَقَّلَةِ، إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا، وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ».

قَالَ ابْنُ عَبْدِ البرِّ رحمه الله فِي كِتَابِهِ «التَّمْهِيدُ»[4] يُبَيِّنِ مَعْنَاهُ: (وَإِذَا كَانَ الْقُرْآنِ الْـمُيَسَّرُ لِلذِّكَرِ كَالإِبِلِ الْـمُعَقَّلَةِ، مَنْ تَعَاهَدَهَا أَمْسَكَهَا، فَكَيْفَ بِسَائِرِ الْعُلُوم؟!).

---

(١) رواه الثَّعالبيُّ في ((منتخب الأسانيد)) ص ١٣٠ بإسناده إليه، وكذلك الحسيني في ((كفاية الرَّاوي والسَّامع)) ص ١٣٤ من مختصره المذكور في الأنوار الجليَّة للطَّباخ، وعنده: (صلُحت) موضعَ (حسُنت)، وبها ذكره السَّخاويُّ في ((فتح المغيث)) ٣/ ٣١٨، دون عزوٍ، وبالجهل بقائله اشتُهر، فاستفد معرفةَ قائلَه غنيمةً باردةً.

(٢) أخرجه ابن عبد البرِّ في ((جامع بيان العلم وفضله)) ١/ ٢١٣، والخطيب في ((الجامع)) رقم (٩٤٩).

(١) أخرجه البخاري في (٧٠) ك: فضائل القرآن، (٢٣) ب: استذكار القرآن وتعاهده، رقم (٥٠٣١)، ومسلم في (٧) ك: صلاة المسافرين، (٣٣) ب: الأَمر بتعهُّد القرآن ، رقم (١٨٧٥).

(٢) ٣/ ٢٠٢.

البَيِّنَةُ التَّاسِعَةُ

فِي التَّأَنِّي نَيْلُ بُغْيَةُ الْـمُتَمَنِّي، وَالثَّبَاتُ نَبَاتٌ، وَإِنَّمَا يُجْمَعُ الْعِلْمُ بِطُولِ الْـمُدَّةِ وَتَجْوِيدُ العُدَّةِ.

قَالَ الزُّهْرِيُّ يُوصِي صَاحِبَهُ يُونُسَ بْنَ يَزِيدَ الْأَيْلِيَّ:

(يَا يُونُسُ لَا تُكَابِرَ الْعِلْمَ، فَإِنَّ الْعِلْمَ أَوْدِيَةٌ، فَأَيُّهَا أَخَذْتَ فِيهِ قَطَعَ بِكَ قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَهُ، وَلَكِنْ خُذْهُ مَعَ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي، وَلَا تَأْخُذِ الْعِلْمَ جُمْلَةً، فَإِنَّ مَنْ رَامَ أَخْذَهُ جُمْلَةً ذَهَبَ عَنْهُ جُمْلَةً، وَلَكِنِ الشَّيْءُ بَعْدَ الشَّيْءِ مَعَ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ)[1].

فَمَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ فِي أَيَّامٍ وَلَيَالٍ فَقَدْ طَلَبَ الْـمُحَالَ، وَمَنْ حَشَا قَلْبَهُ بِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا سَالَ وَادِيهِ وَأَرْوَى قَاصِدِيهِ، وَنِهَايَةُ الْعَجُولِ تَشَتُّتٌ وَأُفُولٌ.

قَالَ الْـخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ رحمه الله فِي «الْفَقِيهِ وَالْـمُتَفَقِّهِ»[2]: (اعْلَمْ أَنَّ الْقَلْبَ جَارِحَةٌ مِنَ الْجَوَارِحِ، تَحْتَمِلُ أَشْيَاءَ، وَتَعْجَزُ عَنْ أَشْيَاءَ، كَالْجِسْمِ الَّذِي يَحْتَمِلُ بَعْضُ النَّاسِ أَنْ يَحْمِلَ مِائَتَيْ رَطْلٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْجِزُ عَنْ عِشْرِينَ رَطْلًا، وَكَذَلِكَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي فَرَاسِخَ فِي يَوْمٍ؛ لَا يُعْجِزُهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي بَعْضَ مِيلٍ فَيُضِرُّ ذَلِكَ بِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْكُلُ مِنَ الطَّعَامِ أَرْطَالًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُتْخِمُهُ الرَّطْلُ فَمَا دُونَهُ؛ فَكَذَلِكَ الْقَلْبُ: مِنَ النَّاسِ مَنْ يَحْفَظُ عَشْرَ وَرَقَاتٍ فِي سَاعَةٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَحْفَظُ نِصْفَ صَفْحَةٍ فِي أَيَّامٍ، فَإِذَا ذَهَبَ الَّذِي مِقْدَارُ حِفْظِهِ نِصْفُ صَفْحَةٍ يَرُومُ أَنْ يَحْفَظَ عَشْرَ وَرَقَاتٍ تَشَبُّهًا بِغَيْرِهِ لَحِقَهُ الْـمَلَلُ، وَأَدْرَكَهُ الضَّجَرُ، وَنَسِيَ مَا حَفِظَ، وَلَـمْ يَنْتَفِعْ بِمَا سَمِعَ).

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في ((جامع بيان العلم)) رقم (٦٥٢، ٦٥٣،) والخطيب في ((الجامع)) رقم (٤٥٢)، وإسناده صحيحٌ.

(٢) ٢/ ٢١٥.

البَيِّنَةُ العاشِرَةُ

لِكُلِّ صِناعَةٍ عُدَّةٌ تُقَرِّبُ نَوالَهَا، وَتُذَلِّلُ صِعابَهَا، وَعُدَّةُ التَّعَلُّمِ آلَةُ الْـمُتَعَلِّمِ، فَمَنْ كَانَتْ مَعَهُ الْآلَةُ بَلَغَ ذُرْوَةَ الْعِلْمِ؛ وَإِلَّا وَقَفَ دُونَهَا.

وَأَوْعَى مَقَالَةٍ بَيَّنَتْ آلَةَ الْعِلْمِ – مِمَّا طَالَعْتُهُ – مَا سَاقَهُ الْـمَاوَرْدِيُّ فِي «أَدَبِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ»[1]، وَقَدْ جَعَلَهَا تِسْعَةَ أُمُورٍ – مَعَ مَا يُلَاحِظُ الْـمُتَعَلِّمَ مِنَ التَّوفِيقِ، وَيُمَدُّ بِهِ مِنَ الْـمَعُونَةِ –:

الْأَوَّلِ: الْعَقْلُ الَّذِي بِهِ تُدْرَكُ حَقَائِقَ الْأُمُورِ.

وَالثَّانِي: الْفِطْنَةُ الَّتِي يَتَصَوَّرُ بِهَا غَوَامِضَ الْعُلُومِ.

وَالثَّالِثُ: الذَّكَاءُ الَّذِي يَسْتَقِرُّ بِهِ حِفْظُ مَا تَصَوَّرَهُ، وَفَهْمُ مَا عَلِمَهُ.

وَالرَّابِعُ: الشَّهْوَةُ الَّتِي يَدُومُ بِهَا الطَّلَبُ، وَلَا يُسْرِعُ إِلَيْهَا الْـمَلَلُ.

وَالْخَامِسُ: الاكْتِفَاءُ بِمَادَّةٍ[2] تُغْنِيهِ عَنْ كُلَفِ الطَّلَبِ.

وَالسَّادِسُ: الْفَرَاغُ الَّذِي يَكُونُ مَعَهُ التَّوَفُّرُ، وَيَحْصُلُ بِهِ الاسْتِكْثَارُ.

وَالسَّابِعُ: عَدَمُ الْقَوَاطِعِ الْـمُذهِلَةِ؛ مِنْ هُمُومٍ وَأَشْغَالٍ وَأَمْرَاضٍ.

وَالثَّامِنُ: طُولُ الْعُمُرِ، وَاتِّسَاعُ الْـمُدَّةِ؛ لِيَنْتَهِيَ بِالاسْتِكْثَارِ إِلَى مَرَاتِبِ الْكَمَالِ.

وَالتَّاسِعُ: الظَّفَرُ بِعَالِمٍ سَمْحٍ بِعِلْمِهِ، مُتَأَنٍّ فِي تَعْلِيمِهِ.

---

(١) ص١٠٤.

(١) المادة: المال.

الخاتمة

قَالَ مُحَمَّدُ مُرْتَضَى بْنُ مُحَمَّدٍ الْـحُسَيْنِيُّ الزَّبِيدِيُّ:

رَوَى ابـنُ عَبْـدِ الـبَرِّ ذُو الإِتْقَـانِ ... فِي طُـرَّةٍ مِـنْ «جَـامِعِ البَيَـانِ»[1]

أُرْجُـوزَةً تُعْجِـبُ مَـنْ رَآهَـا ... إِلَى الإِمَـامِ اللُّـؤْلُئِي عَزَاهَـا

مَنْظُوْمَـةً كَالْـجَوْهَرِ الْـمَكْنُونِ ... وَقِيـلَ عَزْوُهَـا إِلَى الْـمَأْمُونِ

أَوْرَدْتُهَـا هُنَـا لِـحُسْنِ سَـوْقِهَا ... لِلْغَائِصِـينَ فِي بِحَـارِ ذَوْقِهَـا

وَنَصُّـهَا مِـنْ بَعْـدِ حَمْـدِ اللهِ ... مُصَـلِّيًا عَـلَى رَسُـولِ اللهِ

اِعْلَـمْ بِـأَنَّ العِلْـمَ بِـالتَّعَلُّم ... وَالحِفْـظِ وَالإِتْقَـانِ وَالـتَّفَهُّم

وَالعِلْـمُ قَـدْ يُرْزَقُـهُ الصَّـغِيرُ ... فِي سِـنِّهِ وَيُحْـرَمُ الكَبِـيرُ

فَـإِنَّمَا الْـمَرْءُ بِأَصْـغَرَيْهِ ... لَـيْسَ بِرِجْلَيْـهِ وَلَا يَدَيْـهِ

لِسَـانِهِ وَقَلْبِـهِ الْـمُرَكَّبْ ... فِيْ صَـدْرِهِ وَذَاكَ خَلْـقٌ عَجَّـبْ

وَالعِلْـمُ بِـالفَهْمِ وَبِالْـمُذَاكَرَةْ ... وَالـدَّرْسِ وَالفِكْـرَةِ وَالْـمُنَاظَرَةْ

فَـرُبَّ إِنْسَـانٍ يَنَـالُ الحِفْظَـا ... وَيُـورِدُ الـنَّصَّ وَيَحْكِـي اللَّفْظَـا

وَمَـا لَـهُ فِي غَـيْرِهِ نَصِـيبُ ... مِمَّـا حَـوَاهُ الْعَـالِمُ الأَدِيـبُ

وَرُبَّ ذِي حِـرْصٍ شَـدِيدِ الحُـبِّ ... لِلْعِلْـمِ وَالـذِّكْرِ بَلِيـدِ القَلْـبِ

مُعَجَّـزٌ فِي الحِفْـظِ وَالرِّوَايَـهْ ... لَيْسَـتْ لَـهُ عَمَّـنْ رَوَى حِكَايَـهْ

وَآخَـرٌ يُعْطَـى بِـلَا اجْتِهَـادِ ... حِفْظًـا لِمَـا قَـدْ جَـاءَ فِي الإِسْـنَادِ

يُفِيـدُهُ بِالْقَلْـبِ لَا بِنَـاظِرِهْ ... لَـيْسَ بِمُضْـطَرٍّ إِلَى قَمَاطِـرِهْ

فَـالْتَمِسِ العِلْـمَ وَأَجْمِـلْ فِي الطَّلَـبْ ... وَالْعِلْـمُ لَا يَحْصُـلُ إِلَّا بِـالْأَدَبْ

الأَدَبُ النَّـافِعُ: حُسْـنُ الصَّـمْتِ ... فَفِـي كَثِـيرِ القَـوْلِ بَعْـضُ الْـمَقْتِ

فَكُـنْ لِـحُسْنِ الصَـمْتِ مَـا حَيِيتَـا ... مُقَارِنًـا تُحْمَـدُ مَـا بَقِيتَـا

وَإِنْ بَـدَتْ بَـيْنَ أُنَـاسٍ مَسْـأَلَهْ ... مَعْرُوْفَـةٌ فِي العِلْـمِ أَوْ مُفْتَعَلَـهْ

فَـلَا تَكُـنْ إِلَى الْـجَوَابِ سَـابِقَا ... حَتَّـى تَـرَى غَـيْرَكَ فِيـهِ نَاطِقَـا

فَكَـمْ رَأَيْـتُ مِـنْ عَجُـولٍ سَـابِقٍ ... مِـنْ غَـيْرِ فَهْـمٍ بِالْـخَـطَاءِ نَاطِقِ

أَزْرَى بِـهِ ذَلِـكَ فِي الْـمَجَالِسِ ... بَـيْنَ ذَوِي الأَلْبَـابِ وَالتَّنَـافُسِ

الصَّـمْتُ فَـاعْلَمْ بِـكَ حَقًّـا أَزْيَـنُ ... إِنْ لَمْ يَكُـنْ عِنْـدَكَ عِلْـمٌ مُـتْقَنُ

وَقُـلْ إِذَا أَعْيَـاكَ ذَاكَ الأَمْـرُ ... مَـا لِي بِـمَا تَسْـأَلُ عَنْـهُ خُـبْرُ

---

(١) يعني في كتابه «جامع بيان العلم وفضله» ١/ ٢٩٢-٢٩٣.

فَذَاكَ شَطْرُ العِلْم عِنْدَ العُلَمَا   كَذَاكَ مَا زَالَتْ تَقُولُ الحُكَمَا
إِيَّاكَ وَالْعُجْبَ بِفَضْلِ رَأْيِكَ   وَاحْذَرْ جَوَابَ القَوْلِ مِنْ خِطَابِكَ
كَمْ مِنْ جَوَابٍ أَعْقَبَ النَّدَامَهْ   فَاغْتَنِم الصَّمْتَ مَعَ السَّلَامَهْ
العِلْمُ بَحْرٌ مُنْتَهَاهُ يَبْعُدُ   لَيْسَ لَهُ حَدٌّ إِلَيْهِ يُقْصَدُ
وَلَيْسَ كُلُّ العِلْم قَدْ حَوَيْتَهُ   أَجَلْ وَلَا العُشْرُ وَلَوْ أَحْصَيْتَهُ
وَمَا بَقِي عَلَيْكَ مِنْهُ أَكْثَرُ   مِمَّا عَلِمْتَ وَالْجَوَادُ يَعْثُرُ
فَكُنْ لِمَا عَلِمْتَهُ مُسْتَفْهِمَا   إِنْ كُنْتَ لَا تَفْهَمُ مِنْهُ الكَلِمَا
القَوْلُ قَوْلَانِ فَقَوْلٌ تَعْلَمُهْ   وَآخَرٌ تَسْمَعُهُ فَتَجْهَلُهْ
وَكُلُّ قَوْلٍ فَلَهُ جَوَابُ   يَجْمَعُهُ البَاطِلُ وَالصَّوَابُ
وَلِلْكَلَام أَوَّلٌ وَآخِرُ   فَافْهَمْهُمَا وَالذِّهْنُ مِنْكَ حَاضِرُ
لَا تَدْفَع القَوْلَ وَلَا تَرُدَّهُ   حَتَّى يُؤَدِّيكَ إِلَى مَا بَعْدَهُ
فَرُبَّمَا أَعْيَا ذَوِي الفَضَائِلِ   جَوَابُ مَا يُلْقَى مِنَ الْمَسَائِلِ
فَيُمْسِكُوا بِالصَّمْتِ عَنْ جَوَابِهِ   عِنْدَ اعْتِرَاضِ الشَّكِّ فِي صَوَابِهِ
وَلَوْ يَكُونُ القَوْلُ عِنْدَ النَّاسِ   مِنْ فِضَّةٍ بَيْضَا بِلَا الْتِبَاسِ
إِذًا لَكَانَ الصَّمْتُ مِنْ عَيْنِ الذَّهَبْ   فَافْهَمْ هَدَاكَ اللهُ آدابَ الطَّلَبْ
إِلَى هُنَا قَدِ انْتَهَى الْمَنْقُولُ   فَاسْمَعْ هُدِيتَ الرُّشْدَ مَا أَقُولُ
الْعِلْمُ أَصْلُ الدِّينِ وَالإِحْسَانِ   طَرِيقُ كُلِّ الخَيرِ وَالْجِنَانِ
دَلَّ عَلَى تَفْضِيلِهِ البُرْهَانُ   وَسُنَّةُ النَّبِيِّ وَالقُرْآنُ
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَا   وَعُصْبَةٌ بِالْعِلْم يَجْهَلُونَا
لَا تَدْعُ إِلَّا الْعُلَمَاءَ نَاسَا   لِغَيْرِهِمْ لَا تَرْفَعَنَّ رَاسَا
وَهْوَ مَعَ التُّقَى هُدًى وَنُورُ   وَهْوَ مَعَ الزَّيْغِ بَذًى وَبُورُ
فَالْعِلْمُ إِنْ زَادَ وَلَمْ يَزْدَدْ هُدَى   صَاحِبُهُ لَمْ يَسْتَفِدْ إِلَّا رَدَى
فَلَا تُعَدُّ ذَاتُهُ فَضِيلَهْ   إِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى الهُدَى وَسِيلَهْ
فَإِنَّهُ كَالكِذْبِ وَالْخَيَالِ   يَكُونُ عِنْدَ الْخَلْقِ لِلْأَعْمَالِ
فَحَقُّ أَهْلِ العِلْم صِدْقُ النِّيَّةِ   وَالاِجْتِهَادُ فِي صَفَا الطَّوِيَّةِ
وَالجِدُّ فِي التَّقْوَى بِخَيْرِ سِيرَةِ   لِيَسْتَقِرَّ الْعِلْمُ فِي الْبَصِيرَةِ

فَعِلْمُ ذِي الأَنْوَارِ فِي جَنَانِهِ	وَعِلْمُ ذِي الأَوْزَارِ فِي لِسَانِهِ
وَإِنَّ عُنْوَانَ عُلُوم الدِّينِ	فِي الصِّدْقِ وَالْخَشْيَةِ وَالْيَقِينِ
وَأَفْضَلُ العُلُوْم: عِلْمٌ يَقْتَرِبْ	بِهِ الفَتَى مِنْ رَبِّهِ فِيمَا يُحِبْ[1]
فَلْيَبْذُلِ الْجُهْدَ بِمَا يَزِيدُهُ	نُورَ الْهُدَى فِي كُلِّ مَا يُفِيدُهُ
وَبِالْأَهَمِّ فَالْأَهَمِّ يَنْتَقِيْ	مِنْ كُلِّ فَنٍّ مَا يُفِيدُ مَا بَقِيْ
فَإِنَّ أَنْوَاعَ العُلُوْم تَخْتَلِطْ	وَبَعْضُهَا بِشَرْطِ بَعْضٍ مُرْتَبِطْ
فَمَا حَوَى الغَايَةَ فِي أَلْفِ سَنَهْ	شَخْصٌ فَخُذْ مِنْ كُلِّ فَنٍّ أَحْسَنَهْ
بِحِفْظِ مَتْنٍ جَامِعٍ لِلرَّاجِحِ	تَأْخُذُهُ عَلَى مُفِيدٍ نَاصِحِ
ثُمَّ مَعَ المُدَّةِ فَابْحَثْ عَنْهُ	حَقِّقْ وَدَقِّقْ مَا اسْتُمِدَّ مِنْهُ
لَكِنَّ ذَاكَ بِاخْتِلَافِ الفَهْم	مُخْتَلِفٌ وَبِاخْتِلَافِ العِلْم
فَالْمُبْتَدِيْ وَالفَدْمُ لَا يُطِيقُ	بَحْثًا بِعِلْم وَجْهُهُ دَقِيقُ
وَمَنْ يَكُنْ فِيْ فَهْمِهِ بَلَادَهْ	فَلْيَصْرِفِ الوَقْتَ إِلَى العِبَادَهْ
أَوْ غَيْرِهَا مِنْ كُلِّ ذِي ثَوَابِ	وَلَوْ بِحُسْنِ القَصْدِ فِي الأَسْبَابِ
فَلْيَعْمُرِ العُمْرَ فَكُلُّ ذَرَّةِ	رَخِيصَةٍ مِنْهُ بِأَلْفِ دُرَّةِ
فَيَضْبِطُ الأَوْقَاتَ بِالْمَوْقُوتِ	مِنْ قَبْلِ سَبْقِ فِتْنَةٍ وَفَوْتِ
وَالْعِلْمُ ذِكْرُ اللهِ فِي أَحْكَامِهِ	عَلَى الوَرَى كَالشُّكْرِ فِي إِنْعَامِهِ
فَذِكْرُهُ فِي الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ	كَالذِّكْرِ فِي الأَحْكَام وَالآيَاتِ
لَكِنْ كَثِيرٌ أُغْفِلُوا بِالْعِلْم	وَحُكْمِهِ عَنْ رَبِّهِ ذِي الْحُكْم
وَأَدْخَلُوا فِيهِ الجِْدَالَ وَالمِرَا	فَكَثُرَتْ آفَاتُهُ كَمَا تَرَى
فَصَارَ فِيهِمْ حَاجِبًا لِنُورِهِ	عَنْهُ فَمَا ذَاقُوا جَنَى مَأْثُورِهِ
فَهَلَكُوا بِقَسْوَةٍ وَكِبْرِ	وَحَسَدٍ وَعَجَبٍ وَمَكْرِ
نَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الخَبَالِ	وَالعَوْدِ بَعْدَ الحَقِّ فِي الضَّلَالِ
فَالذَّمُّ مِنْهُمْ لَا مِنَ العُلُوم	فَإِنَّهَا مِنْ طَلْعَةِ القَيُّوم
فَحَقُّ مَنْ يَخْشَى مَقَامَ رَبِّهِ	أَنْ يَعْتَنِي بِعَيْنِ مَعْنَى قَلْبِهِ

(١) في الحاشية بخط النَّاظم: ((بالحاء المهملَة، وبالجيم))؛ إشارةً إلى جواز الوجهين فالأوَّل من الحُبِّ، والثَّاني من الوجوب.

وَلْيَجْتَهِــدْ بِكُـــلِّ مَـــا فِي دِينِـــهِ		يَزِيــــدُهُ بِالْـــــحَقِّ فِي يَقِينِـــــهِ
وَأَنْ يُـــدِيمَ الـــذِّكْرَ بِالإِمْعَـــانِ		وَالفِكْـــرَ فِيـــهِ فِي جَمِيـــعِ الشَّـــانِ
لِيَغْـــرِسَ التَّحْقِيـــقَ بِـــالْيَقِينِ		فِي قَلْبِـــهِ بِالْـــحَقِّ وَالتَّمْكِـــينِ
حَتَّـى يَكُـونَ عِنْـدَ مَـوتِ جِسْـمِهِ		حَـــيَّ الحِجَـــا بِنُـــورِهِ وَعِلْمِـــهِ
طُـوبَى لِمَــنْ طَــابَ لَــهُ فُــؤَادُهُ		بِــــالْعِلْمِ وَالتَّقْـــوَى عَلَيْـــهِ زَادُهُ
فَسَـــارَ فِي الحَـــقِّ عَـــلَى طَرِيقَـــهْ		بِالْـــحَقِّ تَهْدِيـــهِ إِلَى الحَقِيقَـــهْ
عَـــلَى اتِّبَـــاعِ المُصْـــطَفَى مَبْنِيَّـــهْ		فِي القَـــوْلِ وَالفِعْـــلِ وَعَقْـــدِ النِّيَّـــهْ[1]

هذا آخر البيِّنة، وتمام المعاني المبيَّنة

(١) انظر: ((ألفيَّة السَّند)) للزَّبيديِّ ص ٢٨٣-٢٩١/ ط البشائر، مع مقارنتها بطبعة ابن عزوز ص ١٦٣-١٦٧، ملاحظًا ما قوَّمته من نشرتها مُجريًا عليهما قلم الإصلاح.